وأخيراً ظهرت براءته

قصة مصرية في رسالتين

---

(١) «من محمد إلى عبد المجيد»

٢٠ أبريل سنة ١٩٢٤

أخي العزيز عبد المجيد افندى !

ما كنت أظن أن فى استطاعة الزمن أن يدور بنا هذه الدورة الفجائية العنيفة ، فيقلب كل شيء رأساً على عقب ، وتقلب حقائق الأشياء من النقيض إلى النقيض !

وما كان يدور بخلدى لحظة واحدة أن يسدد الدهر ذلك السهم الحقير المفلول الطائش فيحكم تسديده إحكاماً ، فيصيب من صداقتنا — بل من أخوتنا الوثيقة — مقتلا أو يكاد :

على أنى سأبذل كل مافى نفسى من قدرة ، وكل ما لدى من جهد ، فى سبيل القضاء على هذه الحركة الطائشة الهوجاء التى يحاول بها هذا الدهر الأخرق المأفون أن يغير من قلبين ليس فى مقدور أية قوة — فى العالم كله — أن تغير من هواها ، إلا إذا كان فى حدود الامكان أن ينقسم القلب الواحد نصفين، ثم يتنير كل منهما على الآخر فيصبحا عدوين :

أخي ! لقد كنا كما يقول الشاعر :

موافين أهواء — توافت على هوى ... فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا

إذا ما دعا منا خليل خليله ... « بأفديك » لباه مجيباً فأسمعا

ولكن ! نعم ولكن يا أخى — ويجدر بى أن أصارحك أن الغيظ والحنق يتملكانني ، وأن الحيرة والدهشة تستولايان على نفسى استيلاء ، ثم تغمرانني فتغرقان نفسى فيهما إغراقاً.

أخي الوفى ! مضت ثلاثة أيام لم يهدأ لى فى غضونها بال ، ولا استراح لى خاطر ، ماذا ؟ بل إنى لأرى الغيظ والحنق يمزقان نفسى تمزيقاً ، ولو أن فى قدرتى أن أقول لك شيئاً لقلت . ولو أن فى مقدورى الافصاح عن تلك الخواطر المبهمة الغامضة المتنافرة التى تجيش فى نفسى لأفصحت عنها ؛ بل إن فى مقدورى أن أفصح وأن أتكلم فتنقلب الأشياء ، وينجلى الباطل الحالك السواد ليحل به مكان الحق الساطع المنير ، ولكن أين سمعك وقلبك ، ومن لى بهما لحظة واحدة لأعيدك إلى رشدك ، آه لو انك قادر على الاصغاء إلى ما أقول، إصغاء حقاً لا أثر فيه للحياء والمجاملة ؛ إذن لأزحت عن عينيك هذه الغشاوة ، وكشفت لك هذه الغيوم المتلبدة التى حجبت عنك كل حقيقة ، فجاوتها لك ناصعة لاتقبل الشك ؛ ولكن كيف أقول وكيف أصنع وقد قلت لك من قبل كلاماً كثيراً فلم تقبل منى كلة واحدة ، ولك العذر فى سوء ظنك، فقد

أحكم التدبير وحبكت المؤامرة حبكا متيناً، ولى العذر أيضاً فأنا أشهد فصول المأساة القاسية، وأرانى ـ بكل أسف ـ بطل المأساة الذى يقوم بتمثيل أهم أدوارها .

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى أو كنت أجهل ماتقول عذلتكا
لكن جهلت مقالتى فعذلتنى وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

ألافلتثق يا أخى أننى لم أسىء إليك، وأننى لم أقترف أى ذنب، ومعاذ الاخلاص أن أخونك فى أعز شىء تملكه ، وكيف أخونك وأنت نفسى وأعز على من نفسى ؟ لقد أقسمت لك بمحرجات الأيمان فلم أرك تزداد إلا ارتياباً ، فلأحتمل منك هذا الشك القاتل فأنا أعرف مصدره وأعلم أنك مخدوع، وأقدر ظروفك كلها حق قدرها ، وإنى لأخبر الناس بك ، بل أنا أخبر بنفسك من نفسك ، أنت يا أخى على أكبر قسط من الدماثة ووفور العقل والذكاء والوفاء والطهارة ، ولكن عيباً رئيسياً فيك ـ لاحيلة لى فى دفعه ـ وليس يضيرك هذا العيب ولكنه يضير سواك ، فقد كدت أن أذهب ضحيته ، أنت ضعيف الحيلة ياأخى، وهذا وحده هو كل عيبك ، فلو أنك تصطنع قليلا من الاناة والحيلة لفهمت كل شىء ، ولكن أى شىء ؛ ليس هناك أى شىء، بل هناك شىء واحد، إذا فهمته أنت أصبح المتهم بريئاً والبرىء متهما ، ولكن سوء الظن هو الذى يدفعك إلى تصديق كل شىء متى رابك منه مالا يريب أحداً سواك ممن يسرفون إسرافك فى إساءة الظن. إنك يا أخى لتغمض عينيك إغماضاً وتصم أذنيك عن كل مايجلو لك الحقيقة ، بل إنك لتخلق الريبة خلقاً ثم تعتقدها اعتقاداً جازماً ، فكيف إذا حدثك بها شخص آخر ، إنها لتصبح يقيناً لاسبيل إلى الطعن فيه ، سأصبر فليس لى حيلة غير الصبر، فان قلبى مطمئن إلى ظهور براءتى ـ بعد قليل من الزمن أو كثير ـ كما كان قلبى يشعر من قبل أن كارثة تهدد صداقتنا التى دامت أكثر من خمس وعشرين سنة .

وللنفس حالات تظل كأنها تشاهد فيها كل غيب سيشهد

يجب أن تعلم ـ وإن كان لاسبيل إلى إقناعك ـ أننى برىء ، وأننى أخلص لك وأسترخص كل شىء فى سبيل صداقتك الغالية ، ولكن من لى بمن يقنعك أن الحقيقة كلها فى ذلك الجانب الآخر الذى تأبى كل الاباء أن تمنحه نظرة واحدة تكشف لك كل الجوانب المستورة عنك وتوصلك إلى الحقيقة من أقرب طريق ، فان أبيت إلا أن تتنكبها لم تصل إلى غير الوهم والضلال: أخى ! ليكن كلام زوجك صادقاً لا يتسرب إليه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولتكن صادقة فيما اختلقته لى من التهم التى صدقتها منها وأخذتها قضايا مسلمة، وقد مر على بها خمسة عشر عاما ، كانت التهمة فى أول هذه الأعوام أقرب إلى العقل والمنطق منها فى هذه الأيام ، ولكن عدل الزمن كفيل بتبديد كل هذه الدياجى والظلمات الحالكة .

أخى ! لست أنتظر منك رداً على هذه الرسالة ولا أنا طامع فى شىء من ذلك ، وربما كان

فى قدرتك أن تفند كل كلمة من كلماتى إذا لجأت إلى أسلوب الجدل وربما هزئت بكل ما فيها من صدق وإخلاص إذا أصررت على إساءة الظن بى ؛ وبعد ، فانى أستودعك الله وأهمس فى أذنك : إن الأيام ستثبت أننى أنبل مما تظن، وأقول لك من أعماق قلبى إننى صاحبك الوفى المخلص:

وإنى أخوك الدائم العهد لم أخن إن ابزاك خصم أو نبا بك منزل

محمد

— ٢ —

«من سامى إلى عبد المجيد»

١٤ يناير سنة ١٩٢٦ م

سيدى عبد المجيد افندى !

يجب أن أقول لك كل شىء ، فقد أرهقنى تأنيب الضمير ، وأصبحت لا أستطيع — أينما ذهبت — أن أهرب من نذالتى — ولم أر مخلصا من هذه الأزمات النفسية المتوالية إلا أن أفضى إليك بالحقيقة إفضاء، لتعود الأشياء إلى أوضاعها الحقة ، وتسميها بأسمائها الجديرة بها ، يجب أن تعلم أننى أنا المجرم الحقيقى وأن زوجك الوفية المخلصة الطاهرة هى شريكتى فى الاجرام ، أما صديقك محمد فهو برىء حقا ، وهذا لا يكفى لانصافه ، فهو — إلى براءته وطهارة نفسه — نبيل عريق فى النبل :

يجب أن تعلم الحقيقة الواقعة ، وأن تنكشف عن عينيك هذه السحب التى طالما حجبت عنك هذه الحقيقة .

هل تذكر يا سيدى عبد المجيد يوم الاحد ١٩ إبريل سنة ١٩٢٤، لعلك لا تذكره ، ولكنى أذكرك به، فقد كنت فى ذلك اليوم تتلو على مسامع صديقك النبيل محمد أنفس بحث وفقت له فى رسالتك التى كنت تقدمها لنيل الدكتوراه ، والتى أحرزت بها أعلى درجات الفوز فى ذلك المضمار، تذكر ذلك اليوم ، لقد كنت مشغولا بمحادثة صديقك الوفى — ثم زارك جماعة من أصدقائك فقطعوا عليك هذا الحديث، ثم... ياللهول ... ما أشد تقريع الضمير ياسيدى الأخ ، ثم فتح الباب بغتة وإذا بصديقك محمد يدخل فيرانى أقبل السيدة، ياالله، لقد اختلستها قبلة آثمة، وانا وزوجك الطاهرة فى مأمن من المباغتة، فقد كنا ننصت إلى حديثك فنطمئن من مباغتتك !

أما محمد فقد كان نبيلا حقا . وقد أدرك العلاقة الآثمة التى تربطنى بهذه الزوج الخائنة، وقد كان فى وسعه أن يملأ الدنيا جلبة وأن ينتهز هذه الفرصة للاتصال بالزوج، فقد ارتمت على قدميه وحاولت أن تقبله لترضيه، فانتفض انتفاضة المذعور ونظر إليها نظرة الحانق المغيظ، ثم خرج وانسللت أنا من الباب الآخر ، وتوقعنا الشر ؛ وخشيت السيدة أن يفاتحك محمد فيما حدث فأحكمت مؤامرتها الشريرة التى كانت سببا فى قطع أواصر الصلات المتينة التى كانت تربطك به ؟

وكنت فى هذه الفترة مأخوذا بنشوة الظفر ، فلم أصغ إلى تقريع ضميرى ، ثم أفقت بعد

ردح من الزمن ، خشيت أن أعكر صفواً يسود البيت ، فلما علمت بحادث أمس جئتك بهذه الرسالة الجريئة لأفضى إليك بكل شيء :

لقد علمت أنك طردتها من بيتك بعد أن فاجأتها مع صديقك الجديد زكى أفندى فى حال مريبة ، وعلمت من الخادم أن هذا الحادث قد أثار حفيظتك على صديقك القديم «محمد» وأنك ظللت تلعن اليوم الذى عرفته فيه ، لأنك حسبت أنه هو الذى بدأ باغراء السيدة الطاهرة ، وأنها أبت أن تصغى إلى إغرائه، ولكنها انتبهت بعد ذلك إلى طريق الغواية التى فتح بابها صديقك الوفى .

لا ياسيدى، إن محمداً صديقك برىء ، أما أنا وزكى افندى فقد كنا نمثل معك دور نذلين، وقد جازيناك إساءة باحسان ، فاغفر لى أو لا تغفر ، فقد أرضيت ضميرى ، وقد ارتحت لانفصالك عنها ، وأردت أن أشرح لك فصول المأساة التى كنا جميعاً أبطالها، لأنه يجب أن تعرف حقيقة هذه المأساة التى اشتركنا فى تمثيلها :

قل عنى — فى أسلوب صريح — إننى نذل خائن، كافر بالصداقة والوفاء ، فانى راض بهذه النعوت التى أستحقها عن جدارة ، ولكنى لا أحب لك أن تنخدع فتصف محمدا صديقك الوفى بها ؟

إننى أرضى أن تقول عنى ما تشاء، ولكنى أريد أن تعرف — بعد ذلك كله — أن صديقك محمدا كان بريئا من كل ما نسب إليه !

ك . ك

واجبك ..! هل أديته ؟

إنك ستؤديه بلا ريب ...

أيها الشباب المثقف .!

إن مجلة «المعرفة» سبيلكم إلى الثقافة الصحيحة ، وهى المجلة المصرية التى يضطلع بأعبائها الشاقة أحد مواطنيكم ، فليكن تعضيدكم إياه مشجعا له ولنيره .. على إحياء القومية المصرية

هذا واجبكم فأدوه